مجلة تراثية فصلية محكمة

٤

المورد

تصدر عن

دار الشؤون الثقافية العامة

- وزارة الثقافة والاعلام

الجمهورية العراقية

المجلد السابع عشر

العدد الرابع

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

عدد خاص

دراسات قرآنية

مدرسة الكوفة
في تفسير القرآن العظيم

دراسة
د . محمد حسين علي الصغير
كلية الفقه ـ جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هبط القرآن الكريم في جزيرة العرب ، والأمة العربية تمثل ذروة قدراتها الابداعية في فن القول .

والقرآن العظيم ، وهو إنساني الرسالة ، إلا أنه عربي النص ، مستشرف العبارة ، مشرق الديباجة بوجه من عروبته الناطقة ، وتبقى هذه العربية أصلاً قويماً في دلائل اعجازه ، بل الأصل الأول ، وماتبقى من دلائل فروع هذا الأصل العريق .

القرآن من وجه ثروة بلاغية لاتنفد ، ومعين تراثي لاينضب ، وهو كتاب هداية وارشاد وتشريع من وجه آخر .

هذا التقييم الطبيعي للقرآن مختص به ، لايشاركه في أبعاده أي كتاب إلهي أو بشري .

إذن : اجتمع في القرآن أصل من عربيته الفصحى ، وقيمتان : بلاغية وتشريعية متميزتان ، ذلك مادعا علماء العرب ، وجهابذة المسلمين ، وفحول المستشرقين ، وجملة من الأوربيين ، ان ينهلوا من روافده جنياً وأن يجدبوا على فهمه الحقيقي بعض الأحايين . وقد نتج عن هذا المنطلق الأثير امتداد يد الباحثين الأمينة للقرآن ، فعالجت شتى علومه ، واستخرجت جملة من كنوز أسراره ، فأضفت على البحث الموضوعي برداً من الجدة لايبلى ، وأفاضت سيلاً من المعارف لاينضب . وكان دور العرب والمسلمين في هذا المجال بارزاً غير خفي ، وقدمهم العلي في الميادين كافة .

نشأت المدارس الحضارية التي تعنى بالتراث في ظل حضارة الاسلام في الحواضر العربية في كل من :

« مكة المكرمة ، المدينة المنورة ، البصرة ، الكوفة ، بغداد ، الموصل ، النجف الأشرف ، القاهرة ، الشام ، اشبيلية ، غرناطة ، القيروان وتونس » .

كان بعض هذه المدارس كياناً مستقلاً ، وبعضها امتداداً للمدارس الأم . اذ كانت النشأة مختلفة في جملة من المجالات ، فالأصل دون نزاع المدرستان العراقيتان العريقتان في البصرة ، تأسست في العام الخامس عشر الهجري ، وفي الكوفة تأسست في العام السابع عشر الهجري ، وبدأ العطاء العلمي فيهما مع التأسيس حتى البناء المتكامل .

مدرسة مكة أندر عطاء ، ومدرسة المدينة اكثر حيوية ، ومدرسة البصرة أوسع مادة ، ومدرسة الكوفة أغلى قيمة ، وأعظم شهرة ، فمولد الاسلام في مكة ، وترعرعه في المدينة ، ونشأته الحضارية المتحفزة في كل من البصرة والكوفة .

حقاً لقد كان نصيب العراق العلمي والتأسيسي غنياً في هذه المسيرة الاكاديمية المتطورة ، فبعد البصرة في ازدهارها ، والكوفة في عطائها ، زهت مدرسة بغداد التراثية على يد إبن قتيبة (ت : ٢٧٦ هـ) ، في العصر العباسي الأول ، وتأسست مدرسة النجف الأشرف على يد الشيخ الأكبر ابي جعفر الطوسي

(ت ٤٦٠ هـ) في العصر العباسي الثاني ، وتبلورت مدرسة الموصل الحدباء بجهود أبن الأثير مجتمعين لاسيما ضياء الدين (ت ٦٣٧ هـ) في أواخر الدولة العباسية . وأعطت كل مدرسة ثمرات أوراقها في النحو وعلوم القرآن والتفسير واللغة والنقد والأدب والفقه والأصول والبلاغة والفلسفة والترجمة ، والتأريخ والجغرافيا ، والببلوغرافيا ، والكيمياء ، والجبر والفلك والهندسة والطب وعلم الأصوات والايقاع الموسيقي وغيرها .

وهذه مفردات علمية هائلة يحتاج النهوض فيها الى جمهرة من العلماء والباحثين والمهرة والطلاب وشيوخ الصناعة في كل فن ، ورؤساء الجامعات في العصر الحديث أدرى بحجم هذه المفردات وأوعى لمشكلاتها ، وأعلم بدلائلها الموسوعية .

وكان الأزهر في القاهرة ، والشام في كل من : بيت المقدس ودمشق وحلب الشهباء ، وجامع الزيتونة في تونس ، والقرويين في المغرب ، مدارس سيارة لفنون العرب والاسلام .

وكانت الدولة العربية في الأندلس تحتضن الحواضر العلمية في كل من اشبيلية وغرناطة وطليطلة وقرطبة ، فانتشرت الثقافة وكثر التصنيف ، وحفلت المجاميع والجوامع برؤوس الشراثيين الأعلام .

وكان المشرق الاسلامي في حواضره العلمية يغذي الحركة الثقافية بأمداد من فيضه المتدفق في الفقه والحديث والأصول والأدب وعلوم القرآن والتفسير فكان اقليم خوارزم ، وخراسان ، وجرجان وطبرستان والري حواضر علم ، ومحافل شعر ، ومقرات تصنيف وتأليف ، ومجامع الفحول من علماء العربية والاسلام .

وكان القرآن الكريم في جميع ماذكرنا من مدارس وأقاليم ودول ومشاهد هو المتصدر لحلقات الدرس والبحث والاستكشاف العلمي ، وكانت الريادة فيه تعني سبرما في أغواره من عمق ، وبيانه من إتساق ، وأبعاده من بلاغة ، وسوره من إعجاز ، وآياته من تأويل وكشف وتفسير .

وتبقى مدارسة القرآن في جدّية ، واستيعاب جزئياته بنهم ، تكونياً وأصالة من نصيب مكة والمدينة في مرحلة البداية ، ومدرستي البصرة والكوفة في مرحلة التأصيل لهذا الفن ، وأمتد فيما بعد ذلك الشعاع الهادي الى الحواضر العربية تدريجياً حتى استقطبها جميعاً في أبعاد متفاوتة ، وكان ماقدمته هذه الحواضر من جهود قرآنية ، يصل بها الى الذروة الصاعدة من بين الجهود الانسانية المبدعة .

ولاغرابة أن تكون مرحلة التكوين لعلم التفسير وقد رسخت النواة الصالحة التي انبثقت عنها مدونات علم التفسير في مرحلة التأصيل ، ويمكننا القاء الضوء ، عليها بما يلي :

١ ـ مدرسة مكة ، وكان قوامها بعد النبي وآله وأصحابه : النخبة الرائدة من أصحاب ابن عباس (ت ٦٨ هـ) وابن عباس رأسها .

وقد نبغ فيها كنموذج أرقى : مجاهدبن جبر المكي (ت ١٠٠ ـ ١٠٣ هـ) وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٤ هـ) وأمثالهما من الرواد الأوائل ، ممن أخذ عن ابن عباس أخذاً حثيثاً متواصلاً .

وكان ابن عباس قد أخذ لباب هذا العلم وطريقته عن الأماه علي كما هو منصوص عليه[1] .

٢ ـ مدرسة المدينة ، وكان قوامها في مرحلة التكوين ثلاثة من أئمة أهل البيت هم : الامام علي بن الحسين زين العابدين (ت ٩٥ هـ) والأمام محمد الباقر (ت ١١٤ هـ) والامام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) كما اعتمدت هذه المدرسة طائفة من تلامذة أبي ابن كعب (ت ١٠٥ هـ) وأصحاب زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) .

وقد امتازت هذه المدرسة بالتجرد والموضوعية ، والكشف عن مراد الله من كتابه ، فيما أثر عنها من روايات محددة .

٣ ـ مدرسة البصرة ، وكان على رأسها الحسن البصري (ت ١١٤ هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٤٥ هـ) وهو أحد القراء السبعة ، وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) وكان من مشاهير القراء . والخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) فيما أثر عنه من دروس ، وكان قد كتب في جملة العلوم العربية المتخصصة ، وفي كتابه (العين) شذرات قرآنية أملتها طبيعة البحث اللغوي في الاستشهاد والاستنباط على حد سواء .[2] .

وكان أبو عبيدة ، معمر بن المثنى الليثي (ت ٢١٠ هـ) في

كتابه « مجاز القرآن » قد قفز بالتفسير اللغوي للقرآن عند البصريين الى مرحلة التأصيل مستفيداً من تجربة الفراء (ت ٢٠٧ هـ) أو موازياً له في المنهج بحدود كثيرة .[٣]

هذه خلاصة موجزة إقتضتها طبيعة البحث في التمهيد لنقف عند مدرسة الكوفة وجهودها في تفسير القرآن العظيم .

* * *

إذا استعرضنا حياة مدرسة الكوفة التفسيرية ، وجدناها تمثل اتجاهين رئيسين في مرحلة التكوين والتدوين معاً وهما :

أ ـ الاتجاه التدريسي ؛ ويمثله ابن مسعود (ت ٣٢ هـ) فقد كان صاحب مصحف معروف ، وكان مفسراً للقرآن ، وحافظاً له ، ومقرناً فيه ، وجملة تابعة له من تلامذته ، وفي طليعتهم : مسروق بن الاجدع (ت ٦٣ هـ) والاسود بن يزيد (ت ٧٥ هـ) والربيع بن هيثم ، وعامر الشعبي (ت ١٠٥ هـ) وأمثالهم من المفسرين الأول لنتفٍ من آيات القرآن سائرة في ركاب علم الحديث تجدها في مظانها من كتب التفسير ، وكان ذلك بهدف تعليم القرآن إستناداً الى قول الرسول الأعظم (ﷺ) « من أحب أن يسمع القرآن غضاً فليسمعه من ابن ام عيد »[٤] يعني ابن مسعود ، وكان ذلك حثاً على تلقي القرآن منه ، مضافاً الى توجيهاته له ، مما عنى تشكيل مدرسة الكوفة التفسيرية والقراءتية والتعليمية بوقت واحد في شكلها الأولي .

ب ـ الاتجاه النصي ، ويمثله تلامذة الأمامين محمد الباقر وجعفر الصادق (ع) ، وقد نشأت عنه طبقتان تقيدت بنقل النصوص رواية وكتابة ، وإن اجتهدت الطبقة الثانية في حدود لاتتعدى توضيح النص وشرحه :

أ ـ طبقة الرواة ، وفي طليعتهم : زرارة بن أعين الكوفي ، والحسن الوشا الكوفي ، ومحمد بن مسلم الكوفي ، ومعروف بن خربوذ الكوفي ، وحريز بن عبدالله الأزدي الكوفي[٥] .

وقد امتازت روايات هؤلاء بالدقة والضبط والأمانة ، وهم معروفون بالوثاقة والدراية وحفظ الرواية .

ب ـ طبقة المؤلفين ؛ وهم الذين أبقوا لنا أثراً تفسيرياً معتمداً قيماً ، وفي طليعتهم : فرات بن ابراهيم الكوفي ، وأبو حمزة الثمالي الكوفي ، ومحمد بن ابراهيم النعماني الكوفي وأضرابهم[٦] وألف إبان بن تغلب (ت ١٤١ هـ) كتاب الغريب في القرآن ، وذكر شواهده من الشعر[٧] .

وقد ألف محمد بن السائب الكلبي الكوفي (ت ١٤٦ هـ) تفسيراً للقرآن[٨] .

وبحدود هذا التاريخ نسب الاستاذ بروكلمان للامام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) كتاباً يسمى (تفسير القرآن)[٩] .

وأبو النضر ، محمد بن مسعود بن محمد السلمي الكوفي المعروف بالعياشي (ت ٣٠٠ هـ) لم يصلنا من كتاباته الكثيرة إلا كتابه في التفسير الذي نقحه علي بن ابراهيم الكوفي ، وهو المعروف اليوم بـ (تفسير العياشي) .

ومن أبرز علماء التفسير في القرن الرابع في الكوفة : علي بن ابراهيم بن هاشم الأشعري نسباً ، والكوفي مولداً ونشأة ، والقمي هجرة وشهرة ، وله تفسير القرآن ، مطبوع عدة مرات .

وطبقة المؤلفين الأوائل هذه ، لم يصلنا من تآليفم التفسيرية الا النزر القليل ، مما هو مطبوع طبعاً رديئاً ، او مما هو مخطوط لم تمتد له يد التحقيق ، ومما علمنا به من خلال النقل عنه في كتب التراث ولم نره .

بيد أن ماوقفنا عليه من سرد لأسماء المصنفين والاعلام ، والمؤلفات التفسيرية في الفهارس ، وماشاهدناه فيما بعد فترة التكوين من جهود تفسيرية بناءة ، جعلنا نتجه الى واقع المذهب الكوفي في التفسير بعناية إكتشافه والتحقق من منهجيته ، فرأيناه بايجاز يميل الى ظاهرة الاستعمال اللغوي ، والتبادر الذهني عند العرب لدى إطلاق الألفاظ في مداليلها ، والتوجه الى فروق اللغة وخصائص العربية ، والاهتمام بالتعبير البدوي في الشعر الجاهلي ونحو ذلك . فضلاً عن العناية المركزية بالمأثور ، ومايتعلق فيه من روايات ومقارنات ودراسات وملخصات .

فإذا قارنا بين هذا وذاك وجدنا ، الأثر الروائي والاثر اللغوي ، بكل تشعباتهما ، يشكلان مدرسة الكوفة التفسيرية ، ويمثلان معلماً بارزاً من معالم التفسير . فإذا ضغطنا العلاقات التراثية بين الاثرين ، اقتضى ذلك كشف الجهد المشترك بين

هذين الأصليين من أجل الوصول الى القاعدة التي ترسو عليها مدرسة الكوفة في تفسير القرآن العظيم .

* * *

كان علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ) شيخ مدرسة الكوفة النحوية دون منازع ، وهو التلميذ الوفي لمؤسس هذه المدرسة أبي جعفر الرؤاسي الكوفي (ت ١٤٨ هـ) وكان الرؤاسي معاصراً للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وكتابه « الفيصل » في النحو يأخذ عنه سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فإذا ذكر في الكتاب : الكوفي ، فأنما يعني أبا جعفر الرؤاسي .[١٠] .

ولقد اختار الكسائي لنفسه طريقة خاصة في القراءة وعدّ بها من القرّاء السبعة ، وكان قد أخذ القراءة مذاكرة عن حمزة الزيات ، وسمع من الأمام جعفر الصادق .[١١]

ولقد أثنى ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) على دقة الكسائي في النحو وضبطه في العربية .[١٢]

وللكسائي كتابان في القرآن هما :

١ ـ كتاب المشتبه في القرآن .[١٣]

٢ ـ كتاب مااشتبه من لفظ القرآن ، وتناظر من كلمات الفرقان .[١٤]

وتجد في منهج الكسائي التأليفي في هذا النمط مزجاً كلياً بين تفسير مفردات القرآن ، ومدارك اللغة ، وقضايا الصرف والموازين ، ومذاهب القرّاء ، ومصادر النحو العربي .

على ان الفراء أشهر تلاميذ الكسائي ، وهو يحيى بن زياد الكوفي (ت ٢٠٧ هـ) هو أول من تناول مسائل النحو ، ومصادر اللغة ، وفلسفة العربية الفصحى في كتابه الجليل : « معاني القرآن »[١٥] .

وقد بدأ الفراء بأملاء هذا الكتاب على تلامذته استقراءً من فاتحة الكتاب حتى استوفى القرآن العظيم ، فكان الرجل من تلامذته يقرأ الآية ، والفراء يفسر ، وهكذا حتى أتم الكتاب إملاءً من غير نسخة .[١٦]

انتشر الكتاب في بغداد انتشار النار في الهشيم ، ولاأحسب الخطيب البغدادي مبالغاً فيما رواه عن أبي بديل الوضاحي في هذا الصدد ، قال : فأردنا ان نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء كتاب المعاني ، فلم يضبط . قال : فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً .[١٧] .

وقد ذهب ثعلب (ت ٢٩١ هـ) مذهباً افتائياً في الثناء عليه فقال : « لم يعمل أحد قبله مثله ، ولاأحسب أن أحداً يزيد عليه »[١٨] .

وقد اعتبر الاستاذ بروكلمان : الفراء : أول من قعد لدرس تفسير القرآن في مسجد من مساجد بغداد ، ونقل قول ثعلب : « ولولا الفرّاء لما كانت اللغة ، لأنه خلصها وضبطها ، ولولا الفرّاء لسقطت العربية ، لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ، ويتكلم الناس على مقاديير عقولهم وقرائحهم فتذهب »[١٩] .

والدقة تقتضي أن يقال : أن الفرّاء هو أول منظم لدرس التفسير أسبوعياً من ناحية الزمن ، وتسلسلياً من ناحية ترتيب المصحف ، وتكاملياً من حيث استقطب كل سور القرآن ، وليس هو اول من ألقى دروساً مستقله في التفسير ، بل هو أول من ألقى دروساً منظمة في التفسير . ولمدة سنين لم ينقطع خلالها فيما رتبه لنفسه على النحو الذي يشير اليه بدقة ميدانية : أبو عبدالله محمد بن الجهم بن هارون السمري (ت ٢٦٨ هـ) بقوله لدى تدوينه معاني القرآن ، (هذا كتاب فيه « معاني القرآن » أملاه علينا أبو زكريا : يحيى بن زياد الفراء يرحمه الله ، عن حفظه من غير نسخة ، في مجالسه : أول النهار ، من ايام : الثلاثاوات والجمع ، في شهر رمضان ، ومابعده من سنة اثنتين ، وفي شهور سنة ثلاث ، وشهور من سنة أربع ومائتين »[٢٠] .

وتشوق الناس الى كتب الفراء ، بعد انتشار المعاني . وكان أبو العباس ، احمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت ٢٩١ هـ) أمام الكوفيين في زمانه ، قد نسب له الحريري في (درة الغواص) كتاباً إسمه (معاني القرآن)[٢١] .

ويبدو انه يدور في فلك الفراء من حيث العرض والأسلوب ، لأن هذا هو الشائع في العصر آنذاك .

وأبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) يعد من أبرز تلامذة

ثعلب ، واكثرهم أخذاً عنه ، وقد أتقن اللغة وتفسير القرآن ، فألف كتاب : الوقف والابتداء في القرآن الكريم ، وهو المعروف بـ « كتاب الايضاح في الوقف والابتداء » وقد لمحت له طبعة حديثة جيدة ، ومنه عدة نسخ خطية في مكتبات العالم[٢٢] .

وكان أبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠ هـ) تلميذ أبي بكر بن الأنباري ، وله كتاب طريف اسمه :

« اشتقاق أسماء نطق بها القرآن ، وجاءت بها السنن والأخبار » وهذا العنوان والكتاب ، هو المحفوظ خطياً في الأسكوريال : ثاني / ١٣٢٦ .

ويذهب بروكلمان ان عنوان الكتاب هو : نزهة القلوب أو (المكروب) في غريب القرآن أو في (تفسير كلام علاّم الغيوب) ، وهو لايذكر مواد المفردات اللغوية من حيث إشتقاقها ، بل يرتب المفردات على حروف المعجم .[٢٣]

* * *

بعد هذا العرض الموجز لمصاقبة مدرسة النحو واللغة والاعراب ، لمدرسة التفسير القرآني في الكوفة ، ومسير الأولى بركاب الثانية ، وإستناد الثانية على حصيلة الأولى ، نستطيع ان نقطع جازمين أن ارساء قواعد هذه المدرسة يعود الى سببين :

الأول : الأثر التدويني فيما أثر من روايات وأحاديث تفسيرية للقرآن أو لبعض القرآن في القرن الأول والثاني من الهجرة ، في جهود طبقة الرواة الثقات ، وطبقة المؤلفين الروّاد .

الثاني : الأثر اللغوي المستند في أغلبه الى آراء شيوخ مدرسة الكوفة : ابتداء من أبي جعفر الرؤاسي مؤسس هذه المدرسة ، ومروراً بنفحات الكسائي ومؤلفاته وقراءته ، ووقوفاً عند جهود الفراء المشتركة بين القرآن واللغة ، لاسيما في : « معاني القرآن » واستئناساً بما أداه ثعلب في : (معاني القرآن) من استشراف استاذه الفراء فيه ، ومأأبداه ابن الانباري من نضج لغوي في اطار قرآني بالوقف والابتداء ، ومأأورده أبو بكر السجستاني من شذرات لغوية مرتبة ترتيباً عصرياً مزج فيها مفردات القرآن باللغة ، وفقه اللغة .

وهذا العرض تقريبي وزمني بوقت واحد ، وقد لايكشف عن تمام العمق الدلالي للمدرسة الكوفية المقارنة بهذا الملحظ ، ولكنه يكشف عن أصالة الجهود المتميزة على سبيل الأنموذج الأصلح ، كما يحيط المتتبع علماً بأن الأصل الموضوعي لمدرسة النحو واللغة والصرف في الكوفة ماهو الا خدمة القرآن العظيم ليس غير ، حتى ان من اعطى جهداً لغوياً خالصاً ، أو تراثياً محضاً لايمزج معه ألفاً من القرآن ؛ قد يعمد بإزائه الى ابتكار طريقة مثلى لخدمة القرآن بشكل يتصوره ويخطط له فينقذه .

ولعل من طريف ماذكره ابن النديم (ت ٣٨٠ هـ) في هذا المدرك : أن أبا عمرو اسحاق بن مرار الشيباني الكوفي (ت ٢٠٦ هـ) وهو تلميذ المفضل الضبي الكوفي (ت ١٧٠ هـ) كان راوية للشعر ، ولكنه كان متحرجاً من كتابته ، فأخذ عهداً على نفسه ، اذا كتب شعراً لقبيلة من العرب كتب بأزائه مصحفاً يضعه في المسجد ، فعدّ ماكتب من مصاحف فوجد نيفاً وثمانين مصحفاً بخط يده ، لأنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة من قبائل العرب .[٢٤]

وفي هذا دلالة على مدى العناية بالقرآن ، حتى كان الجهد الذي يبذل في غيره ضياع ، فلابد والحال هذه من تقديم جهد مافي القرآن ، ان لم يكن تأليفاً أو مدارسة ، فهو استنساخ على الاقل كما فعل الشيباني ؛ وأضرابه كثير .

وهذا الملحظ هو الذي امتد به فضل الكوفة ، وريادتها الأولى الى بغداد ، فأدى الى تأسيس مدرسة بغداد في اللغة والتفسير والبيان العربي . اذ كان رئيس هذه المدرسة ومؤسسها الحقيقي هو ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) وقد ولد أبو عبدالله بن مسلم ابن قتيبة في الكوفة عام (٢١٣ هـ) وانتقل الى بغداد ، وظل يزاول التدريس والتعليم : تفسيراً ونحواً وبلاغةً الى ان توفي في أول رجب عام ٢٧٦ هـ / ٣٠ اكتوبر ٨٨٩ م .[٢٥]

وهناك ألف كتبه القيمة الثمينة السيّارة مع كل جيل[٢٦] وكان كتابه « تأويل مشكل القرآن »[٢٧] من عجائب المصنفات جودة وإتقاناً وتبويباً ، وهو ـ والى اليوم ـ أصل من أصول البحث التفسيري واللغوي والبلاغي في سياق متناسق .

وقد نشأ في ظلال ابن قتيبة وجهوده المبتكرة وامتد من بعده ـ كيان مستقل عظيم للقرّاء في مدرسة بغداد ، حتى نشأ أبو بكر بن مجاهد التميمي (ت ٣٢٤ هـ) فكان إمام القراء ـ دون منازع ـ

وكبير المتنفذين دينياً وسياسياً في بغداد ، وهو أول من سبع القراءات القرآنية في كتابه : « القراءات السبع » وقد حققه ونشره أستاذنا الدكتور شوقي ضيف .

* * *

لقد كان المنهج الموضوعي الذي اختطته مدرسة الكوفة في تفسير القرآن العظيم ، منهجاً يواكب احدث المداليل العصرية للبحث المبتكر ، وكان نموذج هذا المنهج - فيما بعد عصري التكوين والتأصيل - هو أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في « معاني القرآن » ، فقد كان امتداداً تراثياً متطوراً لما سبق ، وممثلاً جامعياً للتدوين المنظم والمتسلسل ، فقد فسر القرآن الكريم سورة سورة حتى أتى عليه ، وهو يبحث في هذا النوع من التفسير اللغوي المتميز ، المفردات العلمية التالية في الأعم الأغلب ، وهي :

تراكيب الجمل والاعراب والاشتقاق ، القراءات أصولها وموقفه الاجتهادي منها ، فقدم وأخر وأفتى واستنبط ، ورجح وقوم بذائقة فنية ، وقد عني بالايقاع السمعي للألفاظ ، والجرس الناغم في الكلمات ، واسترسل في بيان الميزان الصرفي للمفردات ، وملاحظة النسق الصوتي في الفواصل ، وأظهر القيمة الصوتية في العبارات ، وقد قارن بين وزن الشعر ووزن القرآن ، وتحدث عن مراعاة السياق ، وترتيب السجع ، وعرض لجملة من أصناف البديع ، وترشحت من خاطره مباحث بلاغية معدودة من نظراته الثاقبة ، وفكره النير أملتها عليه طبيعة البحث اللغوي ، فكان للتشبيه نصيب مما كتب ، وللتمثيل أطار خاص ، وللمجاز مجال جميل ، وللاستعارة معانٍ قرآنية متأصلة ، وهو في كل ذلك لم يخرج عن المنهج اللغوي للتفسير ، وان استعان على فهم الآية بأختها ، وعلى كشف النص بالرواية ، وعلى تدوين اللغة من الأثر .

لقد أثر هذا المنهج للمدرسة الكوفية بعامة ، كما اثر غيره من افاضات مدرسة الكوفة في المناحي الانسانية ، في ثلاثة من عمالقة التفسير القرآني ، هم :

١ - أبو جعفر ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ تفسيره الكبير « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » فالطبري اعتمد على التفسير بالمأثور بدقة متناهية ، فلا تكاد تجد رأياً تفسيره إلا قد أسند برواية الى النبي أو السلف الصالح ، فا وجزؤها : كالعبارة القرآنية التي تحمل رأياً واحداً - يثبته لها . يذكر منشأ هذا الرأي ، ومصدر ذلك التأويل في رواية متسل السند أو محذوفته ، وإن كان في ذلك عدة آراء فهو يبسطها رأياً ، ويصوغها تفسيراً تفسيراً ، ثم يعقب على كل بالروايات القائلة به ، ثم يرجح ويوازن ويقارن . هذا هو من الأصل .

ولكنك تجده في مسائل الاعراب ، واختلاف القراءا وأسباب النزول ، وعدد الآي ، والميزان الصرفي ، والـ النحوي ، طالما يستند الى مدرسة الكوفة ، ويحقق القول تقتضيه . والدراسة الاحصائية لترجيحاته اللغوية ن وصرفاً ، او اشتقاقاً ، أو تركيباً تثبت صحة هذه الدعوى ، من عمل المتخصصين بالدراسات النحوية ، وإن كان لا آراء البصريين بل ويسرد كثيراً منها في حدود بدت لي أضيق د من ريادته في مدرسة الكوفة .

٢ - أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ تفسيره المعروف « التبيان في تفسير القرآن » .

وهذا التفسير الكريم قائم على أساس الدفاع عن بي الاسلام ، والنضال المستميت عن كلمة التوحيد من أجل تو الكلمة ، لذلك جعله مقارناً بين كل المذاهب الاسلامية و الكلام ، فهو عارض بأمانة ، ومقرّب بصدق ، وموضـ بحق .

وطريقة الشيخ في تفسيره طريقة الطبري في الرواية ، و يؤكد مباحث الاعراب والنحو والحجة واللغة ، ويضيف أس النزول وعدد الآي وتأريختها مدنية أو مكية ، كما يتناول القرا ويناقش مصادرها ، وفي خلال ذلك تلمس المدرسة الكو متمثلة بشخصيته الأخاذة ، وإن ذكر جملة من آراء المدر البصرية .

هذا التفسير - من خلال وجهة نظري القاصر - تفسير

مانع كما يقول أهل المنطق .

برز خلاله دور المؤلف في تسخير طاقاته التفسيرية والبيانية والأصولية والفقهية والكلامية في إرساء الأسس التفسيرية المقارنة ، وهو بذلك قد أفاد من تجارب المؤصلين ، وأضاف من معالم التجديد اللمسات الأخيرة ، جاعلاً من مدرسة الكوفة القرآنية والتشريعية واللغوية مضماراً لآرائه الثاقبة ، ومقارنته الفريدة .

٣ ـ أبو علي ، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت : ٥٤٨ هـ) في تفسيره الشهير : مجمع البيان في تفسير القرآن » ، وأصل شهرة هذا التفسير مضافاً الى النية الصافية انه طبع عدة مرات قبل تفسير الشيخ الطوسي ، ومع ماللطبرسي من المكانة العلمية ، واضطلاع بتصريف شؤون البيان ، إلا أنه استند الى تفسير الطوسي ، استناداً حقيقياً ، إن لم يكن قد إستنسخه نسخاً فعلياً ، وهذا جارٍ في سيرة السلف الصالح أن ينشر اللاحق علم السابق ، ولكن بإضافات قيمة ، توسع فيها ، خصوصاً في المقارنة ولا أدل على ذلك من إجماع هيأة كبار العلماء في القاهرة على أختياره تفسيراً يجمع آراء المسلمين كافة ، فقرروا طبعه بادرة من دار التقريب لهذا الملحظ طبعة جديدة غير طبعة صيدا : ١٣٣٣ هـ .

ولما كان هذا التفسير حاوياً لعلم الشيخ المؤسس الطوسي ، وجامعاً لتفسيره بكل جزئياته ، مع الاضافات الجوهرية الثمينة ، فما قيل عن « التبيان » فيما سبق ، يقال عن « مجمع البيان » جملة وتفصيلاً .

الهوامش

١ ـ ظ : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ٢ / ١٥٧ .
٢ ـ حققه الدكتور مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، وطبعته وزارة الاعلام في ثمانية أجزاء .
٣ ـ حققه الدكتور فؤاد سزكين ، ونشرته مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
٤ ـ الكشي ، الرجال ، عن الكنى والالقاب ١ / ٢١٦ .
٥ ـ ظ : الخوئي ، معجم رجال الحديث ٤ / ٢٥٥ فيما يتعلق بترجمة (حريز) ، وسماه البرقي جرير .
٦ ـ ظ : محمد حسين الطباطبائي ، القرآن في الاسلام ٦٠ .
٧ ـ ظ : الخوئي ، معجم رجال الحديث ١ / ٢٣ .
٨ ، ٩ ـ ظ : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٤ / ٩ ـ ١١ .
١٠ ـ ظ : بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ٢ / ١٩٧ ، وظ : مصادره .
١١ ـ ظ : الخوئي ، البيان في تفسير القرآن ، ١٥٥ .
١٢ ـ ظ : ابن جني ، الخصائص ١ / ٨٤ .
١٣ ـ موجود في : باريس أول ٦٦٥ ، رقم (٤) وهو نفسه كتاب : المشتبهات في القرآن .
١٤ ـ ظ : بروكلمان تاريخ الأدب العربي ٢ / ١٩٩ .
١٥ ـ حققه الأساتذة : محمد علي النجار ، أحمد يوسف نجاتي واسماعيل عبدالفتاح شلبي ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٥ .
١٦ ـ ظ : مقدمة التحقيق .
١٧ ـ ظ : معاني القرآن ، مقدمة التحقيق ١ / ١٣ .
١٨ ـ ابن النديم ، الفهرست : ٦٦ .
١٩ ـ ظ : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٤ / ٩ وأنظر مصادره .
٢٠ ـ ظ : الفراء : معاني القرآن ١ / ١ .
٢١ ـ ظ : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ٢ / ١٩٩ .
٢٢ ـ ظ : المصدر نفسه ٢ / ٢١٦ .
٢٣ ـ ظ : المصدر نفسه ٢ / ٢١٧ .
٢٤ ـ ظ : ابن النديم ، الفهرست ، ١٠١ .
٢٥ ـ ظ : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٢ / ٢٢٢ .
٢٦ ـ ظ ؛ قوائم مؤلفاته في كل من : ابن النديم ، ٧٧ + ياقوت ، معجم الأدباء ١ / ١٦٠ + بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٢ / ٢٢٤ .
٢٧ ـ حققه سيد أحمد صقر تحقيقاً فريداً ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ .
٢٨ ـ طبع عشرات الطبعات ، ومن افضلها طبعة صيدا ، ١٣٣٣ .

المصادر والمراجـع

١ ـ بروكلمان ، البـروفيسور كـارل بروكلمـان (١٨٦٨ م ـ ١٩٥٦ م)
تأريخ الأدب العربي .
ترجمة : عبدالحليم النجار وجماعته ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

٢ ـ ابن الجزري ، محمد بن محمد المعروف بابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ)
غاية النهاية في طبقات القراء .
تحقيق : البـروفيسور بـراجشتراسـر ، مطبعـة الخانجي / القـاهرة / ١٩٣٢ م .

٣ ـ ابن جني ، أبو الفتح ، عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، الخصائص ، دار الكتب المصرية / القاهرة / ١٩٥٣ م .

٤ ـ ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون .
المقدمة ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

٥ ـ الخوئي ، أبو القاسم الموسوي الخوئي .
البيان في تفسير القرآن ، الكويت ، ١٩٧٩ م .

٦ ـ الخوئي ، أبو القاسم الموسوي الخوئي .
معجم رجال الحديث ج : ٣ ، مطبعة الآداب / النجف الاشـرف / ١٩٧٣ م .

٧ ـ الزركشي ، بدر الدين ، محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤ هـ) .
البرهان في علوم القرآن .
تحقيق : محمـد أبو الفضـل ابـراهيم ، مـطبعـة الحلبي / القـاهـرة / ١٩٥٤ م .

٨ ـ السيوطي ، جلال الـدين ، عبدالـرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)
الاتقان في علوم القرآن .
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني / القاهرة / ١٩٦٧ م .

٩ ـ الطباطبائي ، محمد حسين الطباطبائي (صاحب الميزان) .
القرآن في الاسلام ، دار الزهراء / بيروت / ١٩٧٣ .

١٠ ـ الطبري ، محمد بن جرير (ت : ٣١٠ هـ) .
جـامع البيـان عن تأويـل آي القرآن ، مـطبعـة الحلبي / القـاهـرة / ١٩٥٤ م .

١١ ـ الطوسي ، أبو جعفر ، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)
التبيان في تفسير القرآن .
تحقيق : أحمد حبيب القصير ، المـطبعة العلميـة / النجف الأشرف / ١٩٥٧ م .

١٤ ـ الفرّاء ، أبو زكريا ، يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) .
معاني القرآن .
تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، مـطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة / ١٩٥٥ م .

١٣ ـ ابن النـديم ، أبـو الفـرج ، محمـد بن أبي يعقـوب البغـدادي (ت ٣٨٠ / ٣٨٥ هـ) الفهرست .
نشـر الاستاذ فلوجـل / لايبزج / ١٨٧١ / ١٨٧٢ م + تحقيق رضـا تجدد ، ١٣٩١ هـ

١٤ ـ يـاقـوت ، أبـو عبـدالله ، يـاقـوت بن عبـدالله الحمـوي الـرومي (ت ٦٢٦ هـ) معجم الأدباء (إرشاد الأديب) .
تحقيق البروفيسور مرجليوت / القاهرة / ١٩٢٣ م .

* * *